كان الموت بديلاً من عمل فاعل؛ وهو ما ترجمته عبارة غسان نفسه عن ان الفلسطيني مهدّد بالموت؛ وحتى الموت، فانه لا يستطيع ان يجتاز الحدود من بلد الى آخر حتى ولو كان عربياً[٧].

ومن الملاحظ ان غسان كتب، في تلك الفترة، مسرحية «الباب» (١٩٦٤). ولأن هذه المسرحية، ترتبط ارتباطاً كبيراً، برواية «الشيء الآخر»، فسوف نتوقف عندها أكثر لتبيان المناخ الذي كتب فيه كنفاني أعماله.

كان القدر في مسرحية «الباب» هو المجهول الذي راح يتحدّاه الابن، بعد ان تحدّاه اجداده؛ اذ كان تحدّي المجهول هو الشيء الباقي لرد الفعل. سأل الاب شداد: «ماذا بقي لنا لنختار؟»[٨]. وحتى بعد ان قتل نتيجة لتمرّده، فانه، حتى بعد موته، لم يجد غير الاصرار على المواجهة: «لقد حاربته على الارض، وسأحاربه هنا... و... اريد ان أهزمه... تلك هي رسالتي»[٩].

وعلى الرغم من ان رموز غسان توالت منذ الخزان (القدر، الاله، العالم)، وعلى الرغم من يقينه انه لا يستطيع الفكاك من هذا القدر، وانه لا يجد مندوحة للخروج من هذا العالم غير الباب، وعلى الرغم من ان الباب ظل رمزاً لـ «المستحيل»، فانه اندفع ليهزّه بعنف، ولم يستسلم، أبداً.

ان الاستسلام لليأس يعني الاستسلام للموت. وما دام الفلسطيني قد قتل من قبل بمفارقته أرضه، فانه لا يجب ان يقتل مرة أخرى باستسلامه للمصير الجديد. ان الاستسلام هذا لا يفكر البطل فيه داخل النص وخارجه. ان الجميع حوله أكدوا له انه لا طائل من المقاومة، ولا جدوى من تحدّي هذه القوى الاكبر؛ ومع ذلك، فان محدثه قال بدون تردد:

« ـ أترى هذا الباب؛ انظر اليه جيداً؛ لقد تآكلت أظافري وأنا أخمشه كالقط المجنون؛ لقد ذابت عظامي من فرط ما انهمرت فوقه... لقد حُطِّمت جمجمتي...» الخ.

ومع ذلك، فان شداد قال بهدوء:

« ـ ورغم ذلك، فأنا لن استسلم قط... لقد حاربته هناك، وسأحاربه هنا»[١٠].

ووصل غسان، في نهاية النص، الى المعنى الذي أراده من انه قبل ان يستسلم للقدر (المستحيل) يكون قد ملك حريته؛ ويكون هذا الفعل من الوضوح بحيث أن هبا (الاله) قال له ضمن اعتراف طويل:

« ـ انك اكتشفت كل شيء... [و]... انت خارج هذا الباب تمتلك كل حريتك»[١١].

هذا الموقف الفكري، التحدي، لم ينفصل، قط، عن موقفه الفكري في رواية «الشيء الآخر» التي كتبها في تلك الفترة.

كان الزمن، زمن الستينات، زمن آثار النكبة، والمخيّمات، وتخلّي بعض الحكومات العربية، وروح اليأس التي دبّت في القلوب، والبرد الذي كان يعصف بابدان المشردين وعقولهم، وكان زمن انتهاء اقامة غسان في لبنان بانتهاء صلاحية وثيقة السفر، ورفض الدولة، التي منحته اياها، تجديد صلاحيتها، فاضطر الى الاختباء في بيروت لعدم امتلاكه هويّة رسمية، في فترة من أصعب فترات حياته، حين اشتدت فيها المطاردة والقمع نتيجة لمحاولة انقلابية في لبنان. لقد شهر غسان مأساته الشخصية ومأساة شعبه.

ومن هذا كله تداعت الاسئلة: هل أمكن لغسان، في تلك الفترة، ان يشتغل برواية